على تخوم ..... بغداد

الحميدية.. عنوانها الفقر والأمراض وانعدام الخدمات

مدرسة واحدة وصف بمائة طالب و٤٥ ألف مواطن بلا مستوصف صحي

لكي يصل المرء الى منطقة الحميدية (شرق بغداد) عليه ان يختار احد طريقين، فاذا ما اختار الطريق الأول عليه ان يمر عبر الشارع الفاصل بين (جميلة والطالبية) مرورا بكسرة وعطش، والطريق الثاني الذي اختاره كادر (المدى) والذي لم يكن يعرف ان الطريق الاول سيوصله الى هناك كان هو الأصعب والاخطر والاكثر وعورة وغرابة، او لنقل هو الطريق المفاجأة التي تكمن في ان سالكه عليه ان يرضى بما هو مقسوم له وبما سيعترض سيره سواء بسيارته ام مشيا على الاقدام، سدتان ترابيتان تلتفان حول خاصرة مدينة الصدر الشرقية، ولا تلتقيان عند نقطة محددة، سائبتان تفصلهما انهر نضبت مياهها، ومستعمرات قصب، ومنخفضات هائلة بمساحات مختلفة، منها ما تكدست بداخلها هياكل سيارات صدئة، او لونتها السنة لهب مجهولة، وحديد السكراب، واطارات متعددة الاشكال والحجوم كأنها القيت في محرقة يوما ما،، وبقع سود لاثار زيوت محترقة توزعت ذات اليمين وذات الشمال، مقابر اطفال، تلال من الاتربة والنفايات والمزابل، ومستنقعات تباينت الوانها، فهي ما بين الازرق المسود، والاسود المزرق، ومواقع يقال انها كانت في يوم من الايام بحيرات اسماك. صورة معتمة غير انها ذات ملامح هي بلون الفجيعة.. او الحزن والمعاناة والتعايش مع الالم بشكل يومي، صورة قد تغادر فجيعتها لو قدر لها ان تكون ملونة بالوان الشجر والنبت والزهر والماء الدافق، وهي مؤهلة لان تكون هكذا، الا ان القدر اختار لها هذا الواقع المزري، لا ادري اهي بسبب السياسة ؟ ام الفساد، أم الاثنين معا؟

بغداد / شاكر المياح
تصوير / سعد الله الخالدي

اطفال ونفايات

في طريقنا الى الحميدية كنا نرتج ونترنح ونحن في داخل سيارتنا تعترينا مشاعر الرعب فنحن الوحيدون الذين كنا نمر فوق ترابه وحفره ومطباته باستثناء مشي لبضعة صبية، لم يكونوا بالكثرة اللافتة للانتباه، هم ثلاثة او اربعة وقفوا بازاء تلة من تراب وسكراب، كنا اكثر ما نخشاه انهمار المطر سيما وان السماء كانت متلبدة بالسحب الداكنة والريح الرطبة قد شحذت همتها فمست اجسادنا بلمسة برد شفيفة.

الصبية كانوا يجمعون بعضا من صفيح قد كب حديثا على تلك الاكوام من النفايات، واغلب الظن انهم كانوا يرومون بيعه لتوفير لقمة العيش، ثم هبطنا السدة الثانية لننعطف باتجاه السدة الاولى التي تطل على نهايات حافة مدينة الصدر التي كنا ننظر اليها من مرتفع، فابصرنا مستعمرات هائلة للسكراب وهياكل حديدية متنوعة الاشكال والانواع محاذية للشارع الذي يقطع المدينة من جنوبها وحتى شمالها، وينتهي عند التقائه بالشارع الواصل بين كسرة وعطش والطالبية.

في نقطة التفتيش، عرجنا نحو سيارة عسكرية نوع (همر) كانت متوقفة على الجانب الايسر وبحسبما اشار علينا آمر السرية الثانية الرائد (شاكر) الذي رافقنا حتى منتصف الطريق الى الحميدية، وامام (الهمر) استقبلنا ضابط شاب برتبة ملازم فاوضحنا له مهمتنا الصحفية، فرحب بنا وعلى الفور صحبنا الى مقر السرية الثالثة من الفوج الاول لواء ٤٤ وهناك استقبلنا الرائد عبد الوهاب الذي اناط مهمة مرافقتنا والتجوال معنا في المنطقة بالملازم احمد وثلة من جنود السرية.

المقر كان بسيطا في طريقة بنائه ومحتوياته، فهو عبارة عن بيوت مشيدة بالبلوك، استأجرها الفوج من اصحابها الذين هم متجاوزون اصلا على ارضها، والاغرب ان مقبرة للاطفال تضم رفات اكثر من الفي طفل لا تبعد عن المقر سوى امتار قد لا تزيد على عشرة. وعلى الجانب الايمن منها سياج واسع من البلوك والطابوق احاط بمحطة توليد غازية لم تكتمل بعد.

الآبار ومياه الشرب

في هذه الاصقاع المحيطة ببغداد عثرت قوات الجيش على ١٥ جثة متفسخة تعود لاشخاص مغدورين، والقت القبض على قتلة فارين من المحافظات الجنوبية، هو خبر من بعض اخبار لا حصر لها عن مناطق الدونمات. محطتنا الاولى كانت امام محل لبيع المواد الغذائية والحلويات الذي تبرع لنا بأربع بطاريات نوع (قلم) لجهاز التسجيل بعد ان فرغت بطارياته وأول من التقيناه المواطن (ابو حيدر) الذي قال: المنطقة تشتمل على قاطعين، الاول ومن الناحية الادارية يتبع محافظة بغداد، والثاني محافظة ديالى، والذي يبدأ من معمل الغاز وحتى القرية العصرية اذ ان تبعية عقودها الزراعية تعود الى زراعة ديالى، وابناء الحميدية يعانون من عدم توفر مياه الشرب ويعتمدون على الابار التي حفروها بانفسهم للحصول على الماء وهو غالبا ما يكون كدرا ومجا شديد الملوحة بسبب جفاف النهر الذي كان مخصصا لارواء مزارع المنطقة، وهناك وسيلة تتمثل في نقل الماء بواسطة الصهاريج التي قد تغيب اسابيع طويلة ومن ثم تظهر فجأة فيتجمع حولها الناس، فذو الحظ يحظى ببرميل او برميلين ومن لم يسعفه الحظ يعود خالي الوفاض، ويترافق انعدام مصادر الماء الصالح للشرب مع عدم وجود مستوصف او مركز صحي والمرضى منا يلجأون الى مستشفى القادسية في مدينة الصدر.

اما المدارس فحدث ولا حرج، في المنطقة مدرسة ابتدائية وحيدة، يتكدس في كل صف من صفوفها اكثر من مائة طالب وطالبة ينحشرون فيه حشرا ولا توجد مدارس متوسطة او اعدادية، اما ترتيب المنطقة الاداري فغير معروف فلا هي ناحية ولا قضاء واغلب الظن انها توصف بالقرية العصرية وبضمنها المنطقة التي كانت قبل سقوط النظام السابق معسكرا للقوة الجوية واتخذها الناس فيما بعد مساكن لهم.

دور واسعة من دون خدمات

ويضيف: مساحات البيوت واسعة تتراوح بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ متر مربع ومنها بيتي الذي تبلغ مساحته ١٠٠٠ متر مربع وعدد افراد اسرتي واسر اولادي المتزوجين والذين يسكنون معي بنفس البيت عشرون فردا.

احد وجهاء المنطقة عرفنا بنفسه قائلا: اسمي (علي عطوان الربيعاوي) صحبنا في جولتنا هذه وراح يحدثنا عن البدايات الاولى لتأسيس الحميدية وذكر انها انشئت في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، وانه يسكنها منذ اكثر من خمسة عشر عاما، وان عدد نفوسها الان يربو على ٤٥ الف نسمة واغلبهم من الكسبة واصحاب الدخول الواطئة، ولعل عدم توفر الماء والنقص الحاد في تجهيز الطاقة الكهربائية من اشد المشكلات وطأة على حياة ابنائها ومعيشتهم اليومية وعدم وجود شبكة للصرف الصحي، اذ يتم تصريف المياه الثقيلة عبر حفر اتخذناها خزانات ارضية لها وما ان تمتلئ حتى نسرع الى سحبها بواسطة صهاريج خاصة لقاء اجور باهظة، وعن الواقع الصحي قال: أنه سيئ جدا اذ ان المنطقة تفتقر الى المستوصف الصحي، والاصابات بالامراض المختلفة تزداد ومثلها حالات الوفيات وخاصة الوفيات بسبب الاصابة بمرض التايفوئيد جراء شرب مياه الابار، وللاطفال الحصة الاوفر من هذا المرض، ناهيك عن الاسهالات المستمرة واليرقان، والمنطقة تأتلف على مواطنين من مختلف عشائر العراق وطوائفه.

اسباب غريبة لترك الدراسة

ونحن نتحدث مع ابو عدنان احاطت بنا مجموعة من الصبية باعمار متفاوتة فسألنا احدهم ويدعى (عباس خضير): هل انت طالب في المدرسة ؟: تركت المدرسة لعدم توفر الماء فيها وخاصة في مرافقها الصحية، والطالب الذي يروم قضاء حاجته يذهب الى البيت ومن ثم يعود ادراجه الى المدرسة، والوضع اصعب بالنسبة للطالبات، واغلبهن تركن الدراسة للاسباب ذاتها (المدرسة المعنية هي مدرسة المزايا الابتدائية المختلطة).

انفلاونزا الشتاء

المواطن (محمد عيدان) يعمل كاسبا قال: واقع الحميدية مزر جدا ونحن نعيش فيها مرغمين فعسر الحال هو الذي يبقينا مقيمين فيها، والا كيف، يعيش الانسان في منطقة ليس فيها ماء ؟ ناهيك عن انقطاع الكهرباء الذي يستمر لساعات طويلة، اذ لم نحظ بها الا لساعتين او ثلاث خلال ال ٢٤ ساعة، كما انها تفتقر الى المجاري وبسبب المعاناة الشديدة التي نتعرض لها، تجد معظم الاطفال مصابين بالانفلاونزا شتاء وبالاسهال صيفا، ويكاد الموت يحصد عددا منهم يوميا. (حسن ابو فلاح) صاحب مكتب دلالية سألناه عن تسجيل الدور وتحويل ملكيتها قال: لا تحول ملكية هذه الدور كونها (طابو زراعي)، والذي يروم البيع او الشراء فانه يتم عن طريق ابرام عقد بين البائع والمشتري فقط ويستمر الأمر على هذا المنوال حتى تكررت عمليات البيع والشراء.

(ابو عدنان) عقب قائلا: في الليل تنعدم وسائط النقل وتتوقف عن الحركة والمواطن الذي يصاب بحالة مرضية طارئة ربما سيموت في مكانه اذا لم يهيئ له القدر وعن طريق المصادفة واسطة تنقله الى احد مستشفيات مدينة الصدر.

ظامئون مع سبق الاصرار

اينما يممت وجهك تواجهك صرخة الاستغاثة: ابناء الحميدية ظامئون ويستصرخون اصحاب الضمائر الحية عسى ان يستجيبوا لمعنى بقائهم وحقهم في الحياة (ابو عدنان ما زال يحدثني بأسى عن الماء فقال: هذا اليوم تبرع احد الوجهاء بصهريجين من الماء سعة كل منهما خمسة الاف لتر، فاكتنفتني الحيرة، على من ساوزعها وجميع المواطنين ظامئون فأضطررت لان اقوم بتعبئة خزانات بعض البيوت والتي يعاني اصحابها من العطش الشديد وممن امض بهم الفقر، ولكل بيت ٥٠٠ لتر تفرغ في خزاناتهم المنزلية، اما الآبار التي تم حفرها من قبل امانة بغداد فقد تم ردمها من قبل الامانة ذاتها ولم يكن بوسع المواطنين سوى الاعتماد على الابار المحفورة في باحات البيوت، ثم اشار بسبابته نحو مجموعة من الشباب وقد افترشوا الارض وقال: انظر الى هؤلاء انهم عاطلون عن العمل.

وفي جولتنا مررنا باحدى العوائل التي فقدت طفلها اثر اصابته بالتايفوئيد والتقينا والد ه (ناصر خلف سلمان) الذي قال: اصيب ولدي البالغ من العمر ١٢ عاما، وهو طالب في الصف الخامس الابتدائي، بمرض التايفوئيد جراء تناوله مياه الابار فنقلناه الى مستشفى القادسية في مدينة الصدر فرفضوا استقباله بحجة انه لم يحول من جهة صحية رسمية بشكل اصولي فمن اين نأتي بالتحويل سيما ونحن مهجرون من منطقة ابو غريب ؟ ثم نقلناه مرة ثانية وثالثة وفي كل مرة نواجه بهذه الحجة اللاإنسانية، مما استدعانا لان ننقله الى مدينة الطب وهناك اشتد عليه المرض ففارق الحياة. وناصر عسكري متقاعد راتبه لا يتجاوز مائتي الف دينار يدفع منها مائة الف سدادا لدين استدانه لاكمال البيت البلوكي الذي يسكن فيه.

حلول ممكنة

مضيفي (ابو عدنان) لم تنقطع حسراته فقال: ان الموضوع ليس عسيرا على الدولة، فخطوط الكهرباء قريبة من المنطقة، ولو ارادوا لجهزوا الحميدية بالماء الفائض الذي يصب في المبزل وهو كاف لسد حاجتها من الماء الصالح للشرب، الا ان القضية وما فيها تتعلق بالاجراءات الادارية المعقدة وعقدة (كتابنا وكتابكم) ولجنة تقوم واخرى تقعد، انظر (اشار بسبابته مرة اخرى) حالة تلك الانابيب البلاستيكية (الصوندات) التي تمد الى مسافات بعيدة من اجل سحب الماء من الانابيب الرئيسية التي تقع قرب نقطة التفتيش. وتساءل: هل يعلم المسؤولون كم عدد الاطفال الذين قضوا صعقا بالكهرباء ؟بسبب انشغالهم بالمولدات وماطورات الماء..

اين دوائر الخدمات؟

حسب الذين التقينا بهم فليس هناك دائرة رسمية واحدة في الحميدية تقدم خدماتها للمواطنين،ولسان حالهم يقول: نحن خارج حدود المدنية والحضارة حتى ان واسطة النقل الوحيدة هي (الوازات)، والخط الوحيد الذي يربطنا بالعالم الخارجي هو الواصل بين الحميدية ومدينة الصدر.

عشر مولدات والوقود على نفقة المواطنين

يقول ابو عدنان: وزارة الكهرباء وفرت للمنطقة عشر محطات توليد موضعية، وقودها على نفقة المواطنين والعاملون فيها تم انتخابهم من ابناء المنطقة.

ثم قادنا الى سوق الحميدية الرئيسي، لم يكن سوقا بالمعنى الحديث للسوق، بل هو عبارة عن مسقف واسع تم تقطيع ارضيته الى (جنابر وبسطيات) استأجرها باعة الخضروات واللحوم من مالكه وفيه التقينا المواطنة (جنان محمد) امتهنت بيع (الروبة واللبن) بعد ان انهت دراستها الاعدادية / الفرع الادبي، متزوجة ولديها ستة اطفال تتراوح اعمارهم بين ست سنوات وستة عشر عاما وكلهم طلبة يدرسون في مدارس مدينة الصدر لان المنطقة ليس فيها سوى مدرسة واحدة والدوام فيها غير منتظم والمعلمون فيها لا يبالون بتلاميذهم ففي الايام المطيرة ينقطعون عن الدوام سيما وان معظمهم من اهالي مدينة الصدر (وتستدرك قائلة): كنت موظفة في هيئة السياحة، ومصادفة اصبت باطلاقة نارية مجهولة المصدر في ساقي، ولما شفيت عدت الى دائرتي غير ان بعض من يعنيهم الامر رفضوا اعادتي الى الوظيفة قبل ان ادفع لهم ٢٠٠٠ دولار!

ثلة من الاطفال تحلقت حولنا فسألت احدهم: ما اسمك ؟: (اسمي عباس، تركت الدراسة وانا في الصف الثالث الابتدائي بسبب انعدام الخدمات في المدرسة وعدم توفر ماء الشرب. وكذلك مياه الاغتسال في المرافق الصحية والمعلمون لا يمكثون فيها سوى ساعتين او اكثر.

بائعة الخضار (ام حنين) قالت بانها بين الخسارة والربح الشحيح تمضي يومها وهي تعمل لتعيل زوجها المعوق. البائع ابو محمد ذكر أن نفايات السوق لم ترفع منذ اكثر من شهرين لعدم وجود قسم بلدي في المنطقة ولا مجلس محلي.

تلاميذ (المزايا) بلا كتب وقرطاسية

عدد من اولياء تلاميذ مدرسة اكدوا عدم تسلم أولادهم الكتب المدرسية ولا القرطاسية لحد الان مع توفرها في مخزن المدرسة، وربما تم بيع الجزء الاكبر منها !،وأوضح بعض التلاميذ الذين احاطوا بنا بأن المعلمين يطلبون منهم شراء كتب المنهج الدراسي من السوق واصحاب المحال يفرضون اسعارا خيالية عليها.

الطالب (قاسم) من مدرسة (حبيب بن مظاهر) الكائنة في قطاع ٧٣ في مدينة الصدر قال: انا اقطع المسافة بين البيت والمدرسة والتي تبلغ اكثر من خمسة كيلومترات سيرا على الاقدام ذهابا وايابا، وان التدريس فيها جيد غير اننا لم نتسلم القرطاسية لحد الان.، ولم نجهز بكامل الكتب المقررة مثل كتاب العلوم والجغرافية والرياضيات.

احدهم لم يذكر اسمه قال: المدرسة الوحيدة في المنطقة ما تزال تتبع تربية محافظة ديالى اداريا وفنيا، ولم يجر لحد الآن إلحاقها بتربية الرصافة الثالثة، مشيرا الى ان حاجة المنطقة الفعلية اربع مدارس لاستيعاب عدد التلاميذ المتزايد. وان بعض العوائل الميسورة سجلت ابناءها في مدارس مدينة الصدر. اما ابناء العوائل الفقيرة فأستطيع القول بانهم بلا مستقبل لانهم يعيشون ضياعا حقيقيا.

بائعة خضروات تدعى (ام كريم) تحدثت الينا بحماس كبير وقالت: (العراق بلد النفط هل من المعقول ان يكون حال ابنائه مثل هذا الواقع البائس، لو ان الحكام احسنوا الى ابناء شعبهم لكنا الان في وضع آخر).

مدرسة حديثة مغلقة الابواب

توجهنا الى حيث يقيم المختار (ابراهيم البهادلي) وهناك صرنا بمواجهة لوحة دلالة كتب عليها: (محافظة بغداد / الادارة المحلية: تقوم محافظة بغداد بانشاء مدرسة ابتدائية سعة ١٢ صفاً في منطقة الحميدية: كلفة التنفيذ ٨٢٥٣٥ ٠٠٠ دينار.: مدة التنفيذ خمسة وخمسون يوما: الجهة المنفذة: شركة نور المشكاة للمقاولات العامة المحدودة).

بدت لنا من الخارج عبارة عن ثلاثة جملونا ت رائعة محاطة بسياج بلون ابيض وبعد ان حضر المختار طلب من الحارس ان يفتح بوابتها الرئيسة فدلفنا نحو فضاءات جميلة فرشت (بالثيل) وقد صبغت ممراتها باللون الأزرق، ثم دخلنا صفوفها فاذا هي مدهشة من حيث البناء والتجهيز، قال عنها المختار انها مبنية على وفق احدث التصاميم المعمارية العالمية وقد صممها مهندسون اميركان وتتسع ل ٨٥٠ طالبا بدوامين وقد انجزت في شهر نيسان الماضي وهي مغلقة منذ ذلك الحين وحتى الان، ولدينا مخاطبات مع المحافظة ووزارة التربية لاتمام اجراءات التسلم والتسليم، الا اننا لم نتلق الإجابة، ولكن علمنا بان هناك لجنتين قد شكلتا الاولى في المحافظة والاخرى من وزارة التربية للاسراع في انجاز مهمة التسلم ولا اظن ان الامر سيكون سهلا بسبب التعقيد الاداري الذي يضرب اطنابه في جميع دوائر الدولة العراقية.

الطفل علي والسيطرة

ونحن نقفل عائدين وجدنا طفلا لا يتجاوز عمر سبع سنوات يمرح مع افراد السيطرة الامنية، فقلت له: هل انت طالب مدرسة ؟: (لا اني ما مسجل بالمدرسة).

قلت: لماذا ؟: (ما عندي جنسية واحنه مهجرين من محافظة البصرة) هو طفل عراقي في جميع الاحوال ومحروم من المدرسة لانه من محافظة البصرة، ترى كيف ستكون مشاعره ازاء وطن لم يمنحه هوية المواطنة إذا ما شب وبلغ مبلغ الرجولة ؟ سؤال بحاجة الى من يجيب عليه.